غزوة مؤتة[1]

ويطلق عليها «غزوة الأمراء» أو «جيش الأمراء» لأن سرايا وبعوث رسول الله ﷺ كانت تخرج، وعليها أمير واحد إلا يوم «مؤتة»، فقد روى محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، قال: بعث رسول الله ﷺ بَعْثَهُ إلى «مؤتة» في جمادى الأولى من سنة ثمان، واستعمل عليهم «زيد بن حارثة»، وقال: (إن أصيب زيد بن حارثة، فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب «جعفر»، فعبد الله بن رواحة على الناس).

كانت عدة الجيش ثلاثة آلاف، وخرج الناس لوداعهم، وأخذت عينا «عبد الله بن رواحة» تذرفان، فسألوه: ما يبكيك يا بن رواحة؟ فقال: أما والله! ما بي حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردَّكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمٰن مغفرةً ... وضربةً ذاتَ فرغ[2] تقذف الزَّبَدَا

أو طعنةً بيدي حَرَّان مجهزة[3] ... بحربةٍ تُنْفِذُ[4] الأحشاء والكَبِدَا

---

(١) ابن جرير الطبري (٣/٣٦)، ابن هشام (٤/٢٠).

(٢) ذات فرغ: ذات سعة.

(٣) مجهزة: سريعة القتل.

(٤) تنفذ: تخترق

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي[١] أرشدك[٢] الله من غازٍ وقد رشدا

ولما ودَّع عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ قال:

خلَفَ السلام على امرىء ودّعته في النخل خير مشيِّع وخليلِ

ونزل جند الله مَعَان من أرض الشام، ونزل الروم في مآب من أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من لَخْم وجُذام والْقَيْن وبَهْراء وبَلِيٍّ، عليهم رجل من بلي، ثم أحد إراشة يدعى: «مالك بن زافلة».

فلما بلغ المسلمين ذلك أقاموا على معان ليلتين، ورأوا أن يخبروا رسول الله ﷺ بعدد عدوهم، فإما أن يمدهم، أو يأمرهم بأمره، لكن كان لابن رواحة رأي آخر، فقال: يا قوم! والله! إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: صدقت، ومضى الناس، حتى إذا وصلوا تخوم البلقاء، لقيهم «هرقل» بمن معه من الروم والعرب، عند قرية مَشَارق، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة، حيث كان اللقاء.

وتعبأ المسلمون، فكان على ميمنتهم «قطبة بن قتادة العذري» وعلى ميسرتهم أنصاري يدعى «عَبَاية بن مالك» ودارت رحى القتال، وبرز الأمير الأول «زيد بن حارثة» ومعه راية رسول الله ﷺ تخفق فوق رأسه، وراح يضرب أعداء الله بسيفه ذات اليمين وذات الشمال، حتى فرقته رماحهم، وسقط شهيداً.

وهُرِعَ الأمير الثاني «جعفر بن أبي طالب» فانتزع الراية من يد أخيه، ثم اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها[٣]، ثم استبسل في القتال أيَّما

(١) جدثي: قبري.
(٢) عند ابن هشام: أرشده، وفي شرح المواهب: يا أرشد الله، وهو الأوجه لوزن الشعر.
(٣) عقرها: ضرب قوائمها بالسيف حتى لا يستفيد العدو منها إذا قتل صاحبها.

استبسال، وظل يناجز عدوه حتى قطعوا يمينه، فحمل الراية بشماله، ثم ألحقوا شماله بأختها، فاعتنق الراية بعضديه، ثم اجتمعوا عليه فأسكتوا أنفاسه، وهو يقول:

يا حبَّذَا الجنةُ واقترابها طيبةً وبارداً شرابها
والرومُ رومٌ قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
عليَّ إن لاقيتها ضِرابها

ثم هَبَّ الأمير الثالث، عبد الله بن رواحة، وأخذ يستنزل نفسه، ويقول بعد خطف الراية من أخيه جعفر:

أقسمت يا نفس لتَنزِلَنَّهْ طائعةً أو فَلَتُكْرِهِنَّهْ
إن أجلب الناس وشَدُّوا الرَّنَّهْ مالي أراك تكرهين الجنَّهْ؟
قد طال ما قد كنت مُطْمَئِنَّهْ هل أنت إلا نطفةٌ في شَنَّهْ؟

وقال أيضاً يحثها على اتباع سبيل صاحبيه:

يا نفس إلاَّ تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليتِ
وما تمنيتِ فقد أعطيتِ إن تفعلي فعلهما هُدِيتِ

ثم ألقى بنفسه في حومَة المعركة، ولم يلبث يقاتل بضراوة حتى اخترطته السيوف الكافرة، ولحق بزيد وجعفر، رحمهم الله تعالى.

وتناول الراية «ثابت بن أقرم» فقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على «خالد بن الوليد» فلما أخذ الراية، انحاز بالناس، وحاش بهم، ثم انصرفوا، وهناك في المدينة، صَعِدَ رسول الله ﷺ المنبر، وأمر فنودي: الصلاة جامعة، فلما اجتمع إليه الناس، قال: (باب خير، باب خير، باب خير، أخبركم عن جيشكم هذا الغازي، إنهم انطلقوا فلَقُوا العدو، فقتل «زيد» شهيداً ـ واستغفر له ـ ثم أخذ اللواء «جعفر» فشَدَّ على القوم حتى قتل شهيداً ـ فشهد له بالشهادة واستغفر له ـ ثم أخذ اللواء «عبد الله بن رواحة» فأثبت قدميه حتى قتل شهيداً ـ فاستغفر له ـ ثم أخذ اللواء «خالد بن الوليد»

ـ ولم يكن من الأمراء، هو أمَّر نفسه)، ثم قال رسول الله ﷺ: (اللَّهمَّ! إنه سيف من سيوفك، فأنت تنصره) ـ فمنذ يومئذ سمي «خالد» سيف الله ـ ثم قال رسول الله ﷺ: (أبكروا فأمدوا إخوانكم، ولا يتخلفن منكم أحد)، فنفروا مشاةً وركباناً، وذلك في حر شديد، ولما عاد «خالد» بالناس إلى المدينة جعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون: يا فُرار في سبيل الله، فيقول رسول الله ﷺ: (ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرَّار، إن شاء الله). ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩] فأنْعِمْ بها من حياة!

وقد أُلْهِمْتُ في أمراء «مُؤتة» الأبرار هذه الأبيات[1]:

تَجرَّعَ كَأسَ الموتِ زَيْدٌ فصدَّعَا ... قلوباً وأجرى في الخدود المدامعَا
على حِبِّ خير الخلق والناس كلهم ... وجَعْفَرُ لم يَجْبُنْ فوافاه مُسْرِعَا
ليلقى مَقَاماً ما تمنى مُقَرَّبٌ ... له في جنان الخُلْدِ أسْمَى وأرْفَعَا
وكيف يطيبُ العيش لابنِ رَوَاحةٍ ... إذا كان يهوَى الرَّشْفَ مِمَّا تَجَرَّعَا
لقد أُشْرِبُوا كأسَ الحياة سَوِيَّةً ... فلمَّا دُعُوا للموتِ لَبَّوْه أَجْمَعَا
وراحُوا تِبَاعاً يشربون كُئُوسَهُ ... غداة قضى القَهَّارُ أن يشربوا مَعَا
فأَنْعِمْ بها من مِيتةٍ يومَ مُؤْتةٍ ... ويا ليتني أمسيتُ في القوم رابعَا
ولو قَدَّر الرحمٰن شَمْلي بفضلِهِمْ ... لَمَا كنتُ أرجو فوقَ ذلك مَطْمَعَا

تغمدهم الله بواسع رحمته، وأسكنهم فسيح جنته.

(١) الأبيات للشاعر محمد راجي حسن كناس.